

## اللاهوت الأخلاقي - الفصل الخامس: مسألة الإرادة الحرة

### الميتروبوليت فيلاريت فوزنسنسكي نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

المواضيع: تحليل الحتمية (الإيمان بالقضاء والقدر). فهم خاطئ وصحيح للاحتتمية. تأثير الدوافع علينا؛ وحرية الاختيار. وعي الذات بالحرية وحقيقة التوبة.

نحن نعلم بالفعل أن الشخص يكون مسؤولاً عن أفعاله فقط عندما يكون حراً عند القيام بها. هل يتمتع بمثل هذه الحرية الروحية، حرية الإرادة المفترضة هنا؟ في الآونة الأخيرة، انتشرت نظرية تسمى الحتمية على نطاق واسع. أتباع هذا التعليم، الحتميون، لا يعترفون بأن للإنسان إرادة حرة. إنهم يؤكدون أنه في كل عمل على حدة، يتم تحفيز الشخص على التصرف فقط من خلال أسباب خارجية. بحسب تعاليمهم، دائماً تتأثر أفعال الشخص بمحفّزات ودوافع لا تعتمد عليه وعادةً ما تكون خاضعة للأقوى بين هذه الدوافع. يقول هؤلاء العلماء: "يبدو لنا فقط أننا نتصرف بحرية، لكن هذا خداع ذاتي". دافع الفيلسوف الشهير سبينوزا في القرن السادس عشر عن هذا الرأي. لتوضيح موقفه تحدث عن حجر قد رُمي. لو كان بإمكانه التفكير والتحدث لكان قال أنه يطير ويسقط في المكان الذي يختاره. في الواقع، لقد طار فقط لأن أحداً ما رماه وسقط بسبب قوة الجاذبية.

سنعود إلى هذا الصورة لاحقاً. الآن، فلنلاحظ ما يلي. إن التعليم المعارض للحتمية هو الاحتمية. هذا المفهوم تقبله المسيحية. لكن يجب أن نضع في اعتبارنا أن الاحتميين المتطرفين موجودون، لكن تعليمهم أحادي الجانب وخاطئ.

إنهم يقولون إن حرية الإنسان هي قوته المطلقة للتصرف كما يشاء. بهذه الطريقة، وفقاً لأفكارهم، تُمارس الحرية الفردية وفقاً لتقدير الشخص التعسفي، ويتصرف تماماً وفقاً لرغباته أو نزواته. بهذه الخدعة الزائفة من "الحرية"، قام الاشتراكيون والشيوعيون بإغراء الشعب الروسي التعيس المضلل وقبضوا عليه (يتحدث الرسول بطرس عن هذه "الحرية" في رسالته الأولى ١٥:٢-١٦ والثانية ١٩:٢). بالطبع، هذه حرية ساخنة. هذا هو إساءة للحرية وتحريفها. لا يتمتع الإنسان بحرية مطلقة وغير مشروطة. وحده الله القدير يمتلك هذه الحرية العالية الخلافة.

على النقيض من هذه الاحتمية الزائفة، فإن أفكار الاحتمية الحقيقية مختلفة. فهي تعلم أن الشخص يتأثر بلا شك بالمحفّزات والدوافع الخارجية بشكل كثير التنوع. بهذه الطريقة، على سبيل المثال، يتأثر بالبيئة المحيطة وظروف الحياة والسياسة ومستواه التعليمي وتطوره الثقافي، وما إلى ذلك. كل هذا ينعكس في سمات شخصيته الأخلاقية. يتفق الاحتميون مع الحتميين على أن الدوافع والتأثيرات الخارجية المختلفة تعمل على الفرد بقوة شديدة في أغلب المرات. ولكن هناك أيضاً اختلاف جذري بين المفهومين. بينما يقول

دعاة الحتمية أن الإنسان يتصرف بطريقة معينة فقط من خلال تأثير أقوى دافع، وليس لديه أي حرية، يؤكد اللاهوتيون أنه حر في اختيار أي من هذه الدوافع (نحو الخير أو الشر). قد لا يكون هذا الدافع هو الأقوى، كما أن الشخص قد يفضل فعلاً يبدو للآخرين أنه غير مؤاتٍ بشكل واضح. مثال على ذلك هو حشد الشهداء الذين بدوا وكأنهم يدمرون أنفسهم بوعي ودون تفكير على يد الجلادين الوثنيين. بهذه الطريقة، من وجهة نظر اللاهوتيين، لا تكون الحرية الفردية حرية إبداعية غير مشروطة، بل هي حرية اختيار، حرية إرادتنا لتقرير أن نتصرف بطريقة معينة أم لا.

تقبل المسيحية بالتحديد هذا النوع من مفهوم الحرية البشرية، بما يتوافق مع اللاهوتية. بتطبيق هذا المفهوم على الأخلاق، على مسألة الصراع بين الخير والشر، بين الفضيلة والخطيئة، تقول المسيحية أن الحرية الفردية هي حرية الاختيار بين الخير والشر. في التعريف اللاهوتي الأكاديمي، إن "حرية الإرادة هي قدرتنا المستقلة عن أي شخص وأي شيء 'نحو حرية تقرير المصير في الخير والشر'".

الآن ، يمكننا تقييم صورة سبينوزا عن الحجر المتساقط. لقد كنا مقتنعين بأن للشخص إرادة حرة بمعنى اختيار التصرف بطريقة محددة. يعتبر سبينوزا أن تحليق الحجر مشابه لسلوك الإنسان. لكن هذا لا يمكن أن يكون ممكناً إلا إذا كان للحجر حرية الاختيار بين الطيران أو عدم الطيران ، السقوط أو عدم السقوط. لكن من الواضح أن الحجر لا يمتلك مثل هذه الحرية في الاختيار، وبالتالي فإن هذه الصورة غير مقنعة على الإطلاق.

إن إفلاس الحتمية، في رفضها الإرادة الحرة، واضح أيضاً في ما يلي. أولاً، ما من حتمي واحد مصمم على تحقيق تعاليمه في حياته العملية. السبب واضح. إذا نظر المرء إلى الحياة من وجهة نظر حتمية، لن يكون هناك عقاب لأحد، لا طالب كسول بسبب كسله، ولا لص لسرقته، ولا قاتل، وما إلى ذلك، لأنهم لم يتصرفوا بحرية، بل هم فقط عبيد بلا وعي ينفذون إملاءات دوافعهم، متأثرين بها خارجياً. إنه لاستنتاج سخيف، لكنه منطقي تماماً، يمكن استخلاصه من الحتمية. ثانياً، إن إثبات حرية الإرادة هو التجربة الروحية التي تسمى التوبة، وهي حقيقة معروفة للجميع من خلال تجربتهم الشخصية. علام سرتكز هذا الشعور بالتوبة؟ ظاهرياً، يعود التائب في ذهنه إلى لحظة تصرفه الخاطئ وبيكي على خطيئته مدركاً بوضوح أنه كان بإمكانه التصرف بشكل مختلف من غير أن يفعل هذا الشر، بل الخير بدلاً من ذلك. على ما يبدو، لا يمكن أن تكون هذه التوبة ممكنة إن لم يكن للإنسان إرادة حرة، أو إذا كان عبداً للتأثيرات الخارجية محروماً من الإرادة. بهذه السهولة، لن يكون مسؤولاً عن أفعاله.

نحن المسيحيين ندرك أن الفرد حر أخلاقياً، ويحكم إرادته وسلوكه. هذا النوع من الحرية هو أعظم هبة للإنسان من الله الذي لا يطلب طاعة آلياً من الإنسان بل طاعة محبة بنوية حرة. ربنا أكد بنفسه هذه الحرية "إن أراد أحد أن يأتي وِرَائِي فَلْيُنْكَزْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتَّبِعْنِي" (متى ١٦: ٢٤). أَنْظُرْ. قَدْ جَعَلْتُ الْيَوْمَ قُدَّامَكَ الْحَيَاةَ وَالْخَيْرَ، وَالْمَوْتَ وَالشَّرَّ... فَاخْتَرِ الْحَيَاةَ لِكَيْ تَحْيَا أَنْتَ وَنَسَلُكَ" (تثنية ٣٠: ١٥-١٩).

Source: Metropolitan Philaret (Vosnesensky). Moral Theology, Chapter 5: The question of free will . Parish Life. Russian Orthodox Cathedral of St. John the Baptist. <https://orthochristian.com/144206.html>